

## الراقيّ الإيمانى فى شخصية الإمام السجّاد (عليه السلام)



قال ابن تيمية: (وسارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ \* الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَالْأُولَىٰ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران/ 143-133). فى كلمة للإمام زين العابدين (عليه السلام) - هذا الإمام الذى تمرّ ذكرى ولادته فى شهر شعبان المبارك - وهو يتحدّث عن أحبّ الأشياء إلى نفسه، قال: «ما تجرّعت من جرعة أحبّ إليّ من جرعة غيظٍ لا أكافئ بها صاحبها». فقد اعتبر الإمام (عليه السلام) أن أحبّ الأشياء إلى نفسه، هو أن لا يبادل الإساءة بمثليها، بل أن يبادلها بالإحسان منه. وهذا السلوك هو الذى طبع شخصية هذا الإمام (عليه السلام)، من بين العديد من المزايا التى اتّصفت بها شخصيته، فقد كان زينا للعبّادين، وسيّداً للساجدين لكثرة سجوده وعبادته، وكان محبباً للفقراء، وهو الذى كان يقول (عليه السلام): «اللّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيَّ صُحْبَةَ الْفُقَرَاءِ، وَأَعِزِّي عَلَىٰ صُحْبَتِهِمْ بِحَسَنِ الصَّبْرِ». وكان إذا جنّ الليل، وهذأت العيون، ونام الناس، خرج من بيته حاملاً الطعام على ظهره للفقراء كي لا يقضوا ليلتهم جائعين.

ومن المزايا والمواقف التى تميّز بها (عليه السلام) كظم الغيظ، والعفو، ومبادلة الإساءة بالإحسان. وقد برزت هذه المزايا لدى الإمام (عليه السلام) فى تعامله مع مختلف تنوّعات المجتمع؛ مع العبد والسيّد، ومع القريب والبعيد، والحاكم والمحكوم، ليؤكّد الطابع الشامل لها. ومن مواقفه (عليه السلام) مع أحد أقربائه الذى كان يحسد الإمام (عليه السلام) ويحقد عليه، ما دفعه يوماً إلى أن يتهجّم عليه، ويصفه بنعوت مسيئة، وعلى مرأى من أصحابه، فلما انصرف، قال لأصحابه: «لقد سمعتم ما قال هذا الرجل، وأنا أحبّ أن تبلغوا معي إليه حتى تسمعوا ردّي عليه!». وهم لا يشكّون أن ردّ الإمام (عليه السلام) سيكون قاسياً. ولكن فى الطريق، سمعوه يقول: (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَالْأُولَىٰ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)، فعرفوا أن الإمام (عليه السلام) لا يريد ما كانوا يتمنّون. فلمّا وصل الإمام (عليه السلام) إلى بيت ذلك الرجل، خرج متوتّباً للشر، لكنّ الإمام هدأ من روعه وقال له: «يا أخي، إنك كنت قد وقفت عليّ آنفاً، فقلت وقلت، فإن كنت قلت ما فيّ، فاستغفر الله منه، وإن كنت قلت ما ليس فيّ، فغفر الله لك». كلمات قليلة كانت كافية

لتهزّ أعماق هذا الرجل، ولتجعله يعيد النظر في موقفه من الإمام (عليه السلام)، وليقول له: بل قلت فيك ما ليس فيك وأنا أحقّ به. أنا المخطئ وأنا الجاني. أرجو أن تعفو عني، وأن تستغفر لي ربّك. وصار هذا الرجل من بعدها من أخلص الناس للإمام (عليه السلام).

وموقف ثان مع أحد مواليه - والمقصود أحد عبيده. ومن المعروف عن الإمام زين العابدين (عليه السلام)، أنّّه كان يشتري في كلّ عام عبيداً، ليعتقهم في موسمينا؛ في شهر رمضان، وفي يوم عرفة، إذ تذكر السيرة أنّ عدداً من الضيوف حضروا إلى الإمام (عليه السلام)، فأثر الإمام أن يعدّ لهم شواءً، فاستعان بهذا العبد ليعينه على تحضير الطعام ويقوم بالشواء، وعندما حلّ وقت الطّعام، تعذّر هذا الخادم، وهو يحمل السّفود الشديدة الحرارة، بعد أن أخرجها من التنور - والسّفود هي الأسيخ الطويلة التي كان يوضع فيها اللحم - فسقطت على رأس ابن صغير للإمام (عليه السلام)، فاحترق بسببها، فتغيّر وجه العبد، وأصابه الهلع من رهبة الجزاء. لكنّ الإمام (عليه السلام) قال له: «هوّن عليك، فإنّك لم تتعمّد ذلك». ولم يكتفِ الإمام (عليه السلام) بذلك، بل قال له: «اذهب فأنت حرّ لوجه الله».

لقد أراد الإمام (عليه السلام) من خلال مواقفه أن يعزّز قيمة الإحسان إلى الآخرين؛ هذه القيمة التي يحبّها الله ويحبّ من يقوم بها، أيّاً كان هذا الإحسان، والتي جعلها سبحانه وسيلةً لبلوغ الموضع المميّز، عندما قال: (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة/ 195)، وقال: (إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ رَحِيمَةٌ لِّأُولِي الْقُرْبَىٰ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (الأعراف/ 56)، وقال: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْوَسْئِلَٰةَ أَوْلَىٰ وَأَحْسَنُوا الْوَسْئِلَٰةَ وَالزَّيَادَةَ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ فَتَرْوُ وَلَا ذَلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (يونس/ 26). ولا تتوقّف قيمة الإحسان عند الأصدقاء أو الأحبة أو من يحسنون إليه، بل إنّها ترقى إلى أن يُحسن الإنسان حتى إلى الذين أسأؤوا إليه، وهذا ما أشار إليه الله سبحانه عندما قال: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي تِي هِيََ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْدِكَ وَبَيْدَنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ \* وَمَا يُلَاقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَاقُهَا إِلَّا الَّذِينَ هُمْ عَظِيمٌ) (فصلت/ 34-35). فالإحسان في الإسلام إلى الذين أسأؤوا، هو تعبير صادق عن عمق الإيمان، وهو ارتقاء في سلّم الإنسانية، ولا يبلغها (إلاّ الذين صبروا وما يُلَاقُهَا إِلَّا الَّذِينَ هُمْ عَظِيمٌ). وبالإحسان يملك الإنسان قلوب الناس، ويحوّل الأعداء إلى أصدقاء.